العاتف

- ١ -

كانت ترى في صدّارتي المدرسية فسحة لمشاكساتها حتى تستنطقها بالقلم فتثير انفعالاتي وكوامني العدوانية وهي تضحك بمكر وانتصار، أركض إليها.. أعدو.. أهرول سريعاً حتى إذا لحقتُ بها وانقضضت عليها انقضاض النسر على فريسته تمكنتْ ببراثنها الأنثوية من إمساك قلبي، فأنسى القلم وأنسى الصدَّارة وأغوص في غمَّازتيها..!

- ٢ -

كتابي يا كتابي.. كم لامست صفحاتك أناملها..! وكم سعدت بالمسائل تشرحها لي، وبالنظريات تبرهنها، كانت أكثر تميُّزاً مني في المواد العلمية، كنت أغبطها على حدَّة ذكائها وتغبطني على سلاسة كتابتي وجمال خطي.

ضحكنا معاً عندما دخل أستاذ الرياضيات بصدَّارة

بيضاء أعادته إلى أيام الروضة بعد أن كان معانداً لارتدائها، تألمنا معاً حين كانت حصَّة اللغة العربية جلسة لمكاشفة قلوب الطالبات فانفتحت علينا أبواب من الهمِّ والأحزان كانت مكتومة بستائر الضحك والمزاح.

- ٣ -

ما كان غريباً أن تفرِّق بيننا مسالك الجامعة فقد وحَّدت بين قلبينا أيامها، وجمعت بين جسدينا ساحاتها، ولمَّ الهاتف كلَّ يومياتنا، وبتنا مع ضغط الدراسة نألف الصوت أكثر من ألفة الجسد.

اعتدت صوتها بشكل يومي كاعتياد تنسُّم عبق الياسمين الصباحي، لعلِّي أدرجت سماع صوتها ما بين فرائض الصلوات الخمس من حيث لا أدري، فما عادت تكتمل صورة يومي وما بها من أحداث حتى أسقط تعليقاتها عليها فأضع الحافر على الحافر.

- ٤ -

تزوَّجتُ.. كانت أول شريك ودِّي لزوجي يشاطره فيَّ، كان واعياً تماماً لعمق الصداقة التي تجمعنا، لكن ذلك لم يمنعه أحياناً من نثر ذرات الملح فوق أصناف الحلويات التي ألتهمها معها، كان يحذِّرني من لحظة

فراق، كان يخوِّن شفافيتنا حينما يعترف بمبادراتي اللامتناهية والتي تسرقني منه ومن طفلي الذي كان قد بدأ يحبو.. ما كنت أشعر بها كمبادرات... كنت أراها دواعي صداقة حقيقية، كانت كلمته المعهودة : أتراها إن تزوَّجت ستبادر تماماً كما تبادرين..؟ وكان جوابي المستغرب لتوقعاته.. قطعاً...!

- ٥ -

تزوَّجتْ بعد زواجي بأربع سنوات، كانت خلالها توَّاقة للعالم الأسري الذي أملكه، غوصها في عالم الطب لم يكبح جماح الأنوثة فيها كي تتوِّجها بنداء الزوجة والأم، فرحتي بتحقيق مبتغاها ضننتُ بها على كل الناس، فلم أشأ أن أعطي أحداً منها دعوة صدق خبَّأتها لها في جنح ليل، أو وصيَّة مجرِّب زادته الأيام خبرة، كنت في زفافها أخت العروس، وصبيحة عرسها أم العروس، وفي شهر عرسها حماة العروس التي تنقضُّ على خصوصيتها، كل ذلك لأسرق صوتها فأنعش أيامي التي أجدبت بضحله، نعم.. أدمنت صوتها حتى تغلغل ما بين شرايين قلبي وكنت أستشعر عندها الشعور ذاته، بل ما فكرت مرة أنها قد لا تشعر ذات ما أشعر.

مع الوقت قلَّت زياراتنا وكنا نكتفي بالهاتف يلمُّ

يومياتنا.. حتى إذا التقينا.. كنت في أعماقي أبذل بعض الجهد كي أوحد ما بين الصوت والصورة.

- ٦ -

دارت الأيام عليَّ حين حُرمت من الهاتف في سكن جديد كنت أظن نفسي أقترب به منها، فكان المحكَّ الذي ما تمنيته يوماً، كنت على استعداد أن أكسر هذا المحكَّ وألتقي بها كل يوم.. نعم أستطيع أن أنظِّم وقتي مهما ضاق، وأهيِّئ وضعي بحيث أعطي لقلبي مساحة كي يرتوي من حبه لها، ويستعين بذلك الإرواء على سائر اليوم، لكنها لم تكن بتلك الطاقة.

بدأت تتراجع صورتها عن صفحات قلبي كمن ينسل من القلب دقاته، وراحت معالم صوتها تغور في ذاكرتي كمن يسرق من الشفاه بسمتها، جرَّبت أن أخلي لها الساحة، كنت في أعماقي ولأول مرة أختبرها، بعد كل الامتيازات والشهادات التي أعطيتها لها اختبرتها.. ما وعت الاختبار، شغلها عالمها الأسري عني فكادت تنساني ما بين زحمة العمل والدراسة والأمومة، ما استطعت عذرها.. فقد مررتُ بكل ما مرت به وما نسيت، بل ازددت شوقاً وتعلُّقاً.

كادت تفصم عقلي ببعدها، فليست هي التي تبتعد، ليست هي التي تنشغل، ليست هي التي تنسى، أو هكذا

أطَّرتها، حين واجهتها بإطار المثالية.. كسرناه معاً في صرخة ألم.

حتى الآن لا أستطيع الاعتراف بنتيجة الاختبار، فاعترافي يعني زيفاً لمساحة كبيرة من أيامي، ووهماً ورؤية قاصرة لكثير من الصور والقيم.. لذا فإني أكتفي بالصمت.

هاهي ذي كل منا قد عادت إلى حياتها، وفي يومياتنا خواء ترى كل منا مساحته بقدر.. خوائي كبير تركت للزمن ترميمه..

والآن.. قد عاد الهاتف.. ولم يبقَ إلا الذكرى..!

obeikandl.com